على جميع الأدباء والفنانين؟ هل يعد الألم ضرورياً بالنسبة إلى كل أديب أو فنان؟. وبالتالي: ما مدى صحة هذه الفكرة التي أدلى بها الحكيم؟.

الواقع أننا نجد الألم قد لعب دوراً كبيراً في الحياة الفنية لكثيرين من عباقرة الفن، بل إننا لنجد أغلب الأدباء العظام قد عانوا وقاسوا آلاماً ممضة، سواء من إهمال المجتمع الذي لا يقدر موهبتهم، ويتركهم مشردين ينهشهم الفقر بأنيابه، أو من أفكارهم التي تجر عليهم البلوى فتلقي بهم السلطات في غياهب السجون، وتذيقهم ألواناً من التعذيب النفسي والجسدي، أو من مشكلاتهم العاطفية الخاصة التي عانى منها أكثرهم.

وكان لهذا الألم أثر بالغ في إنتاج هؤلاء الأدباء من حيث الصدق، والعمق، والغزارة، وإشراق الأسلوب؛ فمن يستطيع أن ينكر أثر الألم في الشاعر الإنجليزي «كيتس» الذي كان يعاني من مرض جسمه ومرض حبه لـ «فاني براون»[70]؟ أو أثره في الشاعر الفرنسي «ألفريد دي موسيه» الذي يرى أحد النقاد أن ديوانه «الليالي» إنما نبع من مأساة حبه العاثر لـ«جورج صاند»؟[71] أو أثره في «أبي القاسم الشابي»، ذلك الشاعر الكئيب الذي اصطلحت ظروفه الاجتماعية والذاتية على إرهاقه وإيلامه، ولكنه ا ستطاع أن يصهر ألمه شعراً رقيقاً؟[72].

والجدير بالإشارة هنا أن بعض المفكرين والأدباء كانوا يفلسفون الألم ويرون أنه لازم للعقري، فـ «حوتة» مثلاً يقول: «إذا رأيت كائناً من الكائنات قد امتاز امتيازاً خاصاً، فابحث سريعاً عن الناحية التي منها يتألم بحث الفاحص الدقيق، فستجدها مفتاح كل تكوين وارتقاء»[73].

ويرى «نيتشة» أن الألم الشديد يخلص الروح ويحررها، ويرغمها على سبر أغوار نفوسنا، ويجعلنا أشد عمقاً، وسمواً. هذا فضلاً عن أن اللذة المكتسبة بعد الألم تكون أعمق وأرقى وأسمى بكثير من اللذة السابقة عليه، وذلك لأن الإنسان لا يقدر النعمة إلا بعد أن يفقدها، فإذا ما استعادها بعدئذ قدرها وشعر بقيمتها وتمتع بها عن وعي ودراية، ومن هنا رأيا «نيتشة» يشيد بفضل المرض